الخطابة علم وفن وسلوك

مقدمة يسيرة :

لا يمكن للخطابة أن تؤتي ثمارها المرجوة إلا إذا اجتمعت لدي الخطيب معرفة هذه العناصر الثلاثة وتطبيقها ، فالخطابة علم له أصوله وقواعده وتاريخه ، وصلته بالعلوم الأخرى .

الخطابة فن له مناهجه وطرقه ، وأساليبه وتجاربه .

وهي أيضاً سلوك باعتبار ما ينبغي أن يكون عليه الخطيب من صفات خلقية وسلوكيات ، تمثل في مجموعها العلاقة بين الخطيب والمستمعين إليه .

وسنتناول في إيجاز إلقاء الضوء على هذه العناصر .

الخطابة علم :

عُرف الخطابة كعلم له قواعده وأصوله في العصر اليوناني – عصر الفلسفة والجدل – على يد أرسطو فهو أول من دون هذا العلم وجعله مستقلاً عن بقية العلوم والثقافات الأخرى . وقد تناول أرسطو في كتابه "الخطابة" تعريفها وأقسامها وأطال الحديث في جزئياتها وأساليبها وأيضاً تناول الخطيب وصفاته كما تعرض لبعض ميادين الخطابة وشروط كل منها .

وقد لخص هذا الكتاب الفيلسوف ابن رشد . ويعتبر كتابه هذا مرجعاً هاماً للمشتغلين بعلم الخطابة .

علاقة الخطابة كعلم بالعلوم الأخرى :

ترتبط العلوم والثقافات الإنسانية بوشائج قوية وهذا يعني أن كل علم له صلة ببقية العلوم الأخرى ، وما الثقافات الإنسانية إلا حلقات متصلة ولبنات

متجاورة في صرح الفكر الإنساني يكمل بعضها بعضاً ويحتاج كل منها إلي الآخر .

والخطابة ترتبط بالعلوم الأخرى من حيث علاقة كل منها بالخطابة ، وهي علاقات تساهم في رقي الخطابة وتعمل على ازدهارها .

وإذا أخذنا علم النفس مثلاً لوجدناه يرتبط بالخطابة ويساهم في نموها وفاعليتها – لأن الخطابة كما قلنا من قبل هي قدرة الخطيب على إستمالة السامعين وإثارة مشاعرهم ، وذلك بالتأثير فيهم ، وهذا يتطلب من الخطيب أن يكون دارساً لنفوس مستمعيه ، عارفاً بطباعها المختلفة ، وخصائصها المتباينة ، وملماً بدوافعها ، وسلوكياتها الفطري منها والمكتسب ... الخ .

هذه الدراسة هي ميدان علم النفس ومن خلالها يمكن للخطيب أن يصل إلي نفوس المستمعين ويسيطر على مشاعرهم ولا غرو فمهمة الخطيب الأولي هي امتلاك النفوس ، وتهذيب الغرائز ، والسيطرة على الوجدانات والمشاعر . إنه طبيب للنفوس يضع لكل منها العلاج الناجح لها

يقول العلامة الشيخ أبو زهرة " إذا كان علم النفس دعامة لعلم التربية ، فهو أيضاً دعامة لعلم الخطابة ؛ لأن كليهما يهدي الإنسان إلي وسائل الإقناع والتلقين والتأثير ، غير أن الأول لنشئ حدث والثاني لكبار لهم أفكار ومذاهب تجعل التأثير فيهم أبعد منالا ، والوصول إلي قلوبهم أعز مطلعاً والاستيلاء على نفوسهم أشرف منصباً ، كذلك نقول إن علم الخطابة له صلة وثيقة بعلم النفس إذ يجب أن تكون قوانين الخطابة ملائمة كل الملاءمة لقوانين هذا العلم ، بل يجب أن تستجد منها ناموسها وطرقها ومناهجها (١) .

وكذلك علم المنطق له علاقة بالخطابة . فهو علم يعصم اللسان عن الخطأ في التفكير ، ويهتم بترتيب المقدمات وصولاً إلي النتائج " وعندما تُرجم علم الخطابة لأرسطو إلي اللغة العربية في القرن الثالث الهجري اعتبره كثير من

١ – الخطابة للمرحوم الشيخ / محمد أبو زهرة ص (١٠) .

الفلاسفة جزءاً متمماً لعلم المنطق ، وابن سينا في كتابه الشفاء يجعل الخطابة من أقسام المنطق .

والحق أن المنطق ألزم العلوم للخطابة ، وبينهما من وشائج القربى وتداخل المسائل تقارب المناهج وتداني المآخذ ما سهّل على الأقدمين جعلهما علماً واحداً ، وما يجعلنا نحن المتأخرين نعدهما أخوين متحدي النسب (١) .

أما عن علاقة الخطابة بعلم الاجتماع فيرجع ذلك إلي كون هذا العلم يبحث في الظواهر الاجتماعية ويدرس أسبابها ، هذا إلي جانب كونه يدرس الإنسانية في تأثره بغيره في الآخرين وتتناول موضوعاته المتعددة التجمع الإنساني وأشكاله وتطوره بوجه عام .

ولا شك أن للخطابة صلة بالظواهر الإجتماعية ، ومدي تأثيرها سلباً أو إيجاباً على الحياة الإنسانية ، والخطيب لابد له من معرفة تلك الظواهر وأسبابها وآثارها . حتى يتسنى له العمل على انحسارها والقضاء عليها ، أو تشجيعها وتنميتها في نفوس الناس .

ولم يكن ارتباط الخطابة قاصراً على علم النفس والمنطق والاجتماع فحسب ، ولكن هذا الارتباط يشمل بقية العلوم والثقافات الأخرى ، كعلوم الشريعة ، وهي المنهل الذي تستمد منه الخطابة مادتها ، وأيضاً علم التاريخ ، اللغة ، الأدب ، وغير ذلك من العلوم التي تساعد على الإرتقاء بالخطابة وتجعل منها مادة متحركة متجددة تتفاعل مع المجتمع الإنساني ، وتلبي متطلباته وتعمل على تقويم خلقه ، وتهذيب سلوكه .

---

١ - المصدر السابق ص (١٠) .

الخطابة فن

هناك فرق بين العلم والفن . العلم له قواعده وأصوله ونظرياته ، أما الفن فهو ذلك الثوب القشيب للعلم ، يكسبه جمالاً أخاذاً ، ويجعل مادته مطواعة تستهوي النفوس وتأخذ بالألباب ، والفن يعني الابتكار والإبداع ، والتجديد والتطور المستمر في الشيء بغية الارتقاء به . وذلكم بالممارسة ، وكثرة التجارب ، ودوام المران ، مع الإستفادة من الأخطاء .

والفرق بين العلم والفن هو أن الأول يقوم على قواعد ونظريات وحقائق ، أما الفن فإنه ابتكار خلاّق يقوم به العقل البشري ، مستخدماً العلم بحقائقه ، والخيال بآفاقه الرحب من خلال طاقاته المتعددة ، وإمكانياته المختلفة ، وإبداعاته المتميزة ، والكامنة فيه ، يسخرها للخير تارة وللشر أخرى .

وموهبة الفن فطرية في الإنسان ، تنمو لديه تدريجياً مثل الغناء والشعر ، والإلقاء المتميز ، والرسم ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى ، وغير ذلك .

ومع أن لكل من هذه الألوان المختلفة قواعد وأصول ونظريات علمية تقوم عليها ، إلا أن هناك أموراً تشارك هذه القواعد عملها وهو "الإبداع" أو "الابتكار" أو "التجويد" أو "التجميل" وجماع هذه الأمور هو "الفن" فيقال فنان موهوب ؛ لأنه تصرف بحاسته الجمالية في تلك النظريات العلمية فأضاف إليها بأحاسيسه ووجداناته ما جعلها محبوبة وسائغة لدي الناس . والخطابة علم له قواعده . ولكنها أيضاً "فن" له إبداعاته وابتكاراته ، إبداعات في الصوت ، في التعبير وطريقته في الإلقاء ، وكيفيته في التشويق ، وأسلوبه في الاستحوذ على مشاعر الناس وشد أنظارهم إلى الخطيب في مراعاة أحوال السامعين وسياستهم في إضافة كل جديد يجعل الناس مقبلين على الخطابة . إن سرد القصة في الخطبة فن ، وسوق المثل فن ، واستخدام ما يرغب النفس ويرهبها أيضاً فن ، يتطلب رهافة الحس ، وسلامة الذوق ، وحب الجمال في كل شيء .

إن الخطيب الفنان هو الذي يتحسس مواقع القول ، ويتخير بدقة مناسباته ، لا يفرض على الناس نفسه ، بل يتخذ من أسلوبه ما يجعلهم في شوق دائم إليه .

وهناك فرق بين خطيب عالم بقواعد الخطابة ، وآخر يعلمها ويضيف إليها الجانب الفني . الأول يمكنه أن يخطب في الناس وفق قواعد الخطابة التى درسها فحسب . أما الثاني فيقدم للناس هذه القواعد ويضيف إليها لمسات جمالية . فيُقبل الناس عليه لا بآذانهم فحسب ، ولكن بقلوبهم وعقولهم .

وفرق بين فن الخطابة ووظيفة الخطابة .

أقول هذا لبعض أئمة المساجد في عصرنا الحاضر ، وقد اتخذوا الخطابة مجرد وظيفة تؤديٰ في وقت معين تتم بمجرد صعود الخطيب على المنبر وإلقائه الخطبة . والخطيب بذلك يكون قد أدي واجبه الوظيفي تجاه وزارة الأوقاف ، ووافق قانون العمل فيها ، والذي يحاسبه على تخلفه عنها دون عذر أو مبرر معقول .

ومن ثم فقدت الخطابة لدي هؤلاء أثرها في النفوس ، وأفقدت تفاعل الناس معها وجذبهم إليها .

يتضح ذلك من خلال رجلين يملك كل منهما متجراً . الأول امتلأ متجره بصفوف من السلع يحتاج الناس إليها لكنه كدس بضائعه دون ترتيب أو تنسيق ، فانصرف الناس عنه مع حاجتهم إلي ما عنده . أما الثاني فعلي الرغم من أنه يملك نصف ما يملكه الأول إلا أن الناس قد أقبلت عليه . لا لشيء سوي أنه قد نظم سلعه ورتب بضائعه وجعلها منسقة بارزة أمام أعين الناس ، فتزاحموا عليه إعجاباً بجمال عرضه ، وسلامة ذوقه ، ودقة ترتيبه وتنسيقه .

والخطيب كالتاجر تماماً . يعرض بضاعته على الناس ، ومهما بلغت هذه البضاعة العلمية شأوها فلن يقبل الناس عليها إلا إذا أجاد في حسن عرضها ، وجودة ترتيبها ، وسلامة الذوق فيها ، وأضاف إليه من الجمال الفني ما يبهر النفوس فتقبل عليها إعجاباً بها وحباً لها .

والخطيب الناجح لابد أن يمتلك البضاعة الجيدة له وإلي جانب ذلك يحسن عرضها على الناس .

الخطابة سلوك :

الخطيب هو الذي يقوم بإعداد مادة خطبته . وليس من الصعب عليه أن يعد خطبته إعداداً جيداً ، ليلقيها على مسامع الناس بأسلوب رصين بليغ ، وعبارات مؤثرة أخاذة وحركات جسدية يجهد نفسه فيها ، ويحاول من خلال ذلك كله لفت أنظار الناس إليه والإستحواذ على إعجابهم به . لكن بعض الخطباء سرعان ما يكتشف أنه أمام مفاجأة مذهلة تنتظره فالمستمعون له لم تهتز مشاعرهم لكلامه ، ولم تتأثر نفوسهم بكثرة حركاته ، وعلو صوته ، وحدّة نبراته ، وطول خطبته حينذاك يعتريه الإحباط والغضب .

لقد أعد خطبته إعداداً جيداً وترك لصوته العنان يصول ويجول بين آذان السامعين ، ولكنهم قد انصرفوا عنه ... لماذا ؟

ويكرر المحاولة مرات ومرات ، وفي كل مرة يحاول أن يحوذ في خطبته ويزيد من علو صوته لكن دون جدوي : فالسامعون له قد انصرفوا عنه بأحاسيسهم وإن جلسوا حوله بأجسادهم التى امتلأت بها جنبات المسجد . والسؤال الذي يفرض نفسه : كيف يتصرف الخطيب إذن ؟ .

١ – بعض الخطباء تراه يصب جام غضبه على السامعين ، ويسوق إليهم في غيظ وحنق أساليب الوعيد باسم الدين ، وإذا رأى عيباً أو أبصر خطأ من أحد المصلين ، استغله للتشهير به في قالب نصح .

رأيت خطيباً من هذا النوع وقد فشل في جذب مشاعر المستمعين إليه قد خصص خطبة الجمعة للحديث عن عيوب المصلين بالمسجد . وكيف أنهم يمدون حركات المد أطول من اللازم خلفه في التأمين بعد قراءته الفاتحة وأن بعضهم يتشاغل عنه بالنوم والاستناد على أعمدة المسجد للراحة وبعضهم لا يستكمل الصفوف الأولي ... الخ .

وظلت خطبته على هذا المنوال تأخذ طابع النقد والتقريع والتهديد بنار جهنم ، وبعد أن فرغ المصلون من صلاتهم ، وخرجوا من المسجد وكأنهم جميعاً قد كتب عليهم عذاب الله ، وأحل بهم غضبه وعقابه . خرجوا من المسجد غضبي . بعضهم يقسم أنه لن يصلي في هذا المسجد بعد اليوم وبعضهم ينادي : ليرحل هذا الخطيب عن مسجدنا ، وثالثهم يقول سنتقدم شكوى لوزارة الأوقاف ..... الخ .

إن الخطيب لم يوفق في أداء رسالته ، لعيوب في نفسه هو ، وقد ظنها عيوباً في نفوس السامعين .

ونحن لا ننكر على الخطيب أن ينصح ويزجر ويوجه ويهدد المستمعين في كل أمر يراه مخالفاً لأحكام الشريعة قد ارتكبوه . لكن هذا كله يجب أن يتم في أدب ووقور .. وقوة ، وبأسلوب يمزج فيه بين الترغيب والترهيب . وبين الشدة واللين ، وبجرعات مناسبة عقب الخطبة أو أثنائها على شكل نصح أو ملاحظة يسيرة أما أن يتخذ من الخطبة ميداناً للنقد والتشهير لأن المستمعين قد انصرفوا عنه . فهذا جسم وعلى الخطيب أن يراجع نفسه ويسألها ؟ لماذا انصرف الناس عنه ؟ ربما يجد الجواب أو يهتدي إلي السبب ! .

٢ – بعض الخطباء حينما يفشل في جذب السامعين إليه نراه يترك المسجد إلي آخر ، عله يجد فيه من يستمع إليه ، وتعجبه طريقته ، وسرعان ما يكتشف تكرار الصورة ، فيترك الخطابة ويتحول إلي أي عمل كتابي إن كانت الخطابة وظيفته ، أو يتركها إن كانت الخطابة يؤديها تطوعاً . ومن ثم يفتقد ميدان الدعوة خطيباً لو أنه راجع نفسه وتبصر عيوبه لكان جندياً من جنود الدعوة ولأتت خطبه ثمارها المرجوة .

إن محاسبة النفس والاعتراف بالخطأ وتبصر العيوب ومحاولة تلافيها هي من الصفات التى تطرد عن الخطيب شبح اليأس وتجعله يمارس عمله بإتقان وجدية.

أما الخطيب المتكبر الذي يغتر بنفسه ويري فيها المثالية ويري في المقابل أن غفلة المستمعين عنه إنما ترجع لجهلهم بعلمه . فهو خطيب فاشل سرعان ما يقلب الزمان من يده . يترك سلاحه ويخر صريعا في ميدان الدعوة .

الأمثلة كثيرة ومتعدده ولا نريد أن نشق على القارئ الكريم بسوق العديد منها ، وما ذكرناه إنما هو نموذج ومقدمة للحديث عن الخطابة كأدب وسلوك ، حتى تؤتي الخطبة ثمارها المرجوة ، وأهدافها الحقيقية .

أدب الخطيب مع الله عز وجل :

الخطيب هو ذلك الداعية إلي الله تعالي المسلم ، المؤمن بربه عز وجل ، المتوكل عليه ، المتمثل لأوامره والمجتنب لنواهيه .

الخطيب رجل يخطب على المنبر ليبلغ دعوة الله تعالي إلي الناس . هذا التبليغ يحتاج إلي علم غزير واطلاع دؤوب متجدد وإحاطة بكل أحوال المجتمع ومشكلاته وأمراضه . وهو أيضاً في حاجة إلي ذلاقة لسان وقوة بيان ، وحسن عرض ، وسهولة أسلوب ، وجمال عبارة .

هذه صفات لابد منها في الخطيب أو " الداعية إلي الله تعالي " .

بيد أن هناك بعض الدعاة إلي الله في عصرنا الحاضر يملكون هذه الصفات جميعاً ومع ذلك لا تؤتي خطبهم ثمارها المجروة .

تري أي عيب يعتريهم ؟ لقد امتلكوا ناصية البلاغة وأحاطوا بالعلوم ووهبهم الله الصوت الحاد القوي النبرات !! .

والجواب يفترض سؤالاً آخر : ما هي علاقتهم بالله عز وجل ؟

قد يقول قائل : ولم التركيز على هذا الجانب ؟ والخطيب يؤدي عمله بإتقان ولا غبار عليه ؟

والجواب : نعم إن الخطيب يؤدي خطبته قوية بليغة ساق فيها ما ساق من النماذج والأمثلة ... لكن الناس لم تتأثر قلوبهم بها لماذا ؟

لأن الخطيب الديني كان مجرد آلة تفرغ للناس ما بداخلها وإلا فإن الممثل على خشبة المسرح له من التأثير في قلوب الناس أيضاً . أن الخطيب الديني يجب أن تنطلق كلماته من قلبه لتصل إلي قلوب الناس . فما خرج من القلب نفذ ووصل إلي القلب .

إن الممثل على خشبة المسرح يتقمص شخصية معينة يتدرب عليها ليمثل مشاهدها ببراعة . قد يُضحك الناس ، قد يُبكيهم ، قد يثير مشاعرهم بعض الوقت . ولكن بمجرد أن يخرج المتفرج من المسرح . إذا بكل شيء في نفسه قد هدأ ومع مرور وقت قصير ينسي ما شاهده . ولو دُعي لمشاهدته مرة أخرى فسيرفض ذلك لأن تأثره كان وقتياً وهامشياً أيضاً ، لم تستقر أحداث المسرحية في قلبه وإن أضحكته قليلاً أو تأثر بها بعض الوقت .

سل أحد المصلين الذين خرجوا من صلاة الجمعة وقد اهتزت مشاعره وأحاسيسه من خطب الجمعة ما الذي جعلك هكذا تبكي أو ما الذي نراه على أمارات وجهك من التأثر ؟ فيجيبك لقد تحدث الخطيب عن كذا . وكذا . ويسرد لك موضوع الخطبة في تأثير بالغ ولو عدت إليه بعد فترة من الوقت طالت أو قصرت ، لو جدت ما ذكره الخطيب ساكنا في جوارحه ، وكأنه ماثل بين عينيه ، ثم لا يعنينا التأثر بقدر التحول . فهذا الذي هزت مشاعره كلمات الخطيب . عن الصلاة مثلاً . نراه يتحول من تارك للصلاة . إلي مواظب عليها . من شارب خمر إلي مجتنبها وهكذا كيف تم هذا التحول فجأة ؟

والجواب بدهي لا يحتاج إلي تعليل أو برهان .

لقد نفذت كلمات الخطيب إلي قلبه ، لأنها خرجت صافية نقيه من قلب الخطيب ، هذا القلب الذي استضاء بنور الإيمان ، وعمر بذكر الله تعالي : أصبحت كلماته لها تأثير أشد من السحر على قلوب السامعين .

من هنا يبرز دور الإيمان في قلب الداعية إلى الله ، ضرورة وجوده ومن الإيمان ينبثق الخوف من الله ، والتوكل عليه ، وشدة مراقبته والخوف منه . هذه الصفات تثمر في جملتها " الأدب مع الله " وهي صفة نراها ضرورية للداعية إلى الله قبل تعديه للدعوة وخوضه لغمارها .

كيف يتحقق هذا الأدب ؟

سنوجز بعض الصفات التى يجب على الخطيب أن يتحلى بها مع خالقه عز وجل . فإن وعاها وواظب عليها أثمرت دعوته ونفذت كلماته إلى نفوس السامعين واستطاع أن يسيطر على مشاعرهم ، ومن ثم تؤتي دعوته ثمارها المرجوة .

وليعلم الخطيب جيداً أن أدبه مع الله عز وجل سيسهل له مهمته ويفصح له لسانه ، وييسر طريق العلم ، ويكشف له الداء ، ويعينه على التماس الدواء الناجح له . ومن هذه الصفات :

١ - الإيمان بالله عز وجل . وكلمة الإيمان تشتمل مدلولاتها الثلاثة إيمان بالقول . إيمان في العمل إيمان بالقلب ، الإيمان بالله يعني تأصيل جوهر العقيدة وترسيخها في قلب الداعية ترسيخاً لا تزعه شبهة ولا يعتريه ظن ولا تشوبه شائبة . ومثل هذا الإيمان العميق ضروري لكل مسلم وهو للداعي أشد ضرورة في الوقت الحاضر الذي ضيعت فيه كلمة الإسلام وعلت فيه كلمة الكفر ونضب معين الإيمان في النفوس ، وازدادت محن المسلمين وأصبح أعداء الإسلام يشككون في عقيدته الصحيحة ويبثون الشبهات حول تعاليمها القويمة هذا الإيمان الصادق يثمر محبة الله عز وجل لصاحبه ، فيجعل من كلمته سيفاً مسلطاً على أعداء الدعوة وبلسماً شافياً يهدي العصاة وينير الطريق أمام الحائرين والإيمان بالله أيضاً يثمر الخوف منه سبحانه فيعمل لكل تصرف يتصرفه ألف حساب ، وإذا خاف المسلم ربه كانت هيبته من خالقه شديدة ومراقبته له سبحانه وتعالى قوية ، يراقبه في سلوكه . في أخلاقه ، فيما ينطلق به ، لا يفتري على الله الكذب

، لا يبتدع في الدين ما ليس منه ، لا يتقول على رسول الله (ﷺ) ما لم يقله . يتحري كل كلمة ينطق بها .

والإيمان بالله عزل وجل يثمر أيضاً الرجاء وعدم القنوط من رحمة الله ، ويثمر أيضاً الصبر ، وهو عدة الدعاة وزادهم في تبليغ الدعوة . وجملة القول أن إيمان الداعية بربه يجعله متوكلاً عليه ، لا يهاب أحداً ولا يخافه لأن الله معه يؤيده وينصره إلي جواره . يقول القرآن حكاية عن موسى وهارون (عليهما السلام) ﴿ **قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** ﴾ (١) .

إن العناية الإلهية هي مفتاح نجاح الداعية في دعوته ، ولن تتوافر للمسلم إلا بتقوى الله وإحسان العمل وشدة المراقبة .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (٢) .

٢ – من التأدب مع الله عز وجل أن يكون عمل الداعية إلي الله مطابقاً لقوله وإلا كانت دعوته آلية وكانت خطبه ومواعظه تلقينية بمعني أنه يغدو ملقناً للناس لما يعرفه داعياً يؤمن به . والمستمعون أمام هذا النموذج لا يعبأون بكلامه ، ولا يثقون في ترغيبه وترهيبه . إن تحدث عن الصدق وقد اشتهر بينهم بالكذب رفضت قلوبهم حديثه ، يصرخ في الناس ويصول ويجول على المنبر ، بينما يهمس أحد المصلين في أذن صاحبه بالعامية " كان واعظ نفسه "

ولعل من أهم الأسباب التى تعوق حركة الدعوة في عصرنا الحاضر فقدان الثقة في الداعية ، وهذا ينشأ بلا شك من عدم مطابقة قوله لعمله وسلوكه ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ (٣) .

---

١ – الآية ٤٥ ، ٤٦ سورة طه .

٢ – الآية الأخيرة من سورة العنكبوت .

٣ – الآية ٤٤ سورة البقرة .

إن القدوة الطيبة هي الوسيلة الفعالة لنشر الدعوة والتأثير على الناس والكلمة دون قدوة تصاحبها ، وسلوك يترجمها من الداعية إلي الله ، لا جدوى منها ، ولا ينتظر لها تأثيراً أو وقعاً في نفوس السامعين .

ومعيار القدوة الحسنة هو التأسي برسول الله (ﷺ) في أقواله وأفعاله هذا التأسي يمثل قمة التأدب مع الله عز وجل ورسوله (ﷺ) .

والقدوة لا تتأتى إلا في ظل المحبة للمقتدي به ، ومحبة الرسول (ﷺ) هي جزء من محبة الله عز وجل ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) .

والمحبة سلوك وأدب وتواضع ورحمة .

إن التخلق بأخلاق الرسول (ﷺ) والسير على نهجه عملاً وسلوكاً أمران ضروريان للداعية إلي الله تعالي – في ظلهما – تثمر دعوته خيراً وتؤتي كلماته ثمارها . عن أسامة بن زيد بن حارثة (ﷺ) قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فتندلق (أي تخرج) أقتاب بطنه (أي أمعائه) فيدور بها كما يدور الحمار في الرحي فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك : ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ؟ فيقول بلي كنت يأمر بالمعروف ولا آتيه وأنه عن المنكر وآتيه " متفق عليه .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) " رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون".

٣ – ومن التأدب مع الله عز وجل أن يراعي الخطيب الدقة فيما يسوقه للناس من أحاديث وأن يعرف صحيحها من ضعيفها ، ويميز بين الأحاديث

---

١ – الآية ٣١ سورة آل عمران .

الصحيحة المروية والإسرائيليات والموضوعات المنسوبة زعما وكذباً إلى رسول الله (ﷺ) ، ومن المظاهر الخطيرة التي تسترعي الانتباه وتستوجب التحذير وتتنافى مع الأدب مع الله عز وجل ورسوله صلوات الله وسلامه عليه اتجاه بعض الخطباء إلي الإسرائيليات والأحاديث المكذوبة الموضوعة يحفظونها دون تدقيق فكر أو إمعان نظر ثم يلقونها على مسامع الناس باسم : قال رسول الله (ﷺ) . أو في الحديث الشريف . ومما يؤسف له أن بعض السذج من الناس يعشق هذه المرويات ، ومن ثم يبالغ الخطيب في سوقها . والخطيب هنا لا يهمه ضعف الحديث أو صحته ، لا يعنيه صحته أو كذبه ، كل ما يهمه إعجاب الناس بهذه المرويات ورضاهم عنه عندما يكثر منها في خطبته . والخطيب بذلك يصبح مروجاً للإسرائيليات والأكاذيب . وهو بذلك يخون الأمانة ويشترك مع من وضع هذه الأكاذيب في الإثم الجسيم والجرم الشنيع . فإن كان جاهلاً بحقيقتها فتلك مصيبة ، وإن كان عالماً بها أو متراخياً عن البحث فيها فالمصيبة أعظم ، والجرم أكبر . وأمثال هؤلاء يتجرءون على رسول الله (ﷺ) ويسيئون الأدب معه . ومن أساء الأدب مع رسول الله (ﷺ) فقد أساء الأدب مع الله عز وجل .

فليحذر خطباء المنابر هذه الأكاذيب . وإن رضي البعض عنها وليكن له غناء عنها في الأحاديث الصحيحة ، وليتسلح بالعلم قبل أن يرتاد المنبر وإلا كان شيطاناً في صورة خطيب .

إن الحديث عن هذا العنصر الهام وهو الأدب مع الله عز وجل يطول بنا لو تركنا للقم عنانه في الحديث عنه ويكفي القول : بأن الأدب مع الله عز وجل في قوة اليقين وحسن الإيمان وشدة المراقبة . وقمة الخوف وعدم الاعتزاز بالدنيا والتوكل على الله والثقة به سبحانه وتعالي ، إلي جانب التخلق بأخلاق القرآن ومن ثم يستجيب لدعوته الناس ويأمرهم فيأتمرون بأمره ، ويخطب فيهم فتهتز مشاعرهم لكلامه وصدق رسول الله (ﷺ) " أدبني ربي فأحسن تأديبي " .

وقد ترجمت السيدة عائشة هذا الأدب في قولها عندما سئلت عن أخلاق رسول الله (ﷺ) فقالت " كان خلقه القرآن " .

سلوك الخطيب مع السامعين :

للخطيب صفات وآداب ينبغي أن يتحلى بها حتى تثمر دعوته ويوفق في أداء رسالته .

وسنعرض لهذه الصفات وجماعها تربية الخطيب وإعداده "في فصل مستقل ، لكننا نود الإشارة هنا إلي سلوك الخطيب مع المستمعين أثناء الخطبة وهذا السلوك ضروري وحتمي وإلا فقد الخطيب التأثير على المستمعين والتسلل إلي قلوبهم .

وإذا كانت الخطابة علم له قواعده وأصوله ، وفن له ممارساته وإبداعاته فهي أيضاً سلوك بصاحب العلم والفن معاً ، سلوك في النص الذي يسوقه والعبارة التي ينطق بها . وسلوك في الصوت والحركة ، وسلوك في الخلق أماما يجب على الخطيب أن يلتزم به من سلوك في النص الذي يسوقه ، فهذا أمر سبقت الإشارة إليه ونؤكد عليه هنا أيضاً نظراً لأهميته وخطورته فكثير من الخطباء يسوقون النصوص دون إجادتها حفظاً وأداءاً مثل القرآن الكريم ، وبعضهم يسوق من الأحاديث المنسوبة إلي رسول الله (ﷺ) وهي موضوعة أو شديدة الضعف لا يقبلها العقل ، وبعضهم يحلو له أن يسوق في خطبته من الإسرائيليات والقصص المكذوبة والمنسوبة إلي الأنبياء والصالحين والتي تجدها كثيرة في بطون الكتب . وقد توهم هؤلاء أن مثل هذه القصص ترضي العامة وتسحر النفوس ، وتشد الانتباه إليها ، نحن لا ننكر أن للقصة أثرها في النفس ، ولا ننكر على الخطيب أن يسوق من القصص في خطبته ولكن أي قصص يسوق ؟ القصص الصادق المأثور عن الصحابة أو التابعين أو السلف الصالح . أما القصص المكذوبة الذي لا يتخيله عقل فهذا أمر يتنافى مع أدب الخطيب مع السامعين ، وهو خيانة عظمي في حقهم فهو يكذب عليهم ، وهم يصدقونه وسواء كان كذب الخطيب متعمداً أو جهلاً بحقيقة النص الذي يسوقه فالنتيجة واحدة ،

وعلى الخطيب أن يتحرى كل نص يسوقه للسامعين فهذا هو المعيار الخلقي بين الخطيب وسامعيه (١) .

أما عن أدب الخطيب في صوته فهذه قضية تحتاج إلي وقفة ، هناك بعض الخطباء يرفعون أصواتهم إلي الحد الذي تضيع معه عباراته التي يسوقها ولا يفهم منه مغزاها لأن صوته قد غدا حاد النبرات تتقطع منه الكلمات وتتمزق الجمل ويصاب بالإجهاد فيخلط بين النصوص تارة ، وينسى أو قد يتوقف في نص حفظه لكن المبالغة في علو صوته جعلت النص يهرب من ذاكرته وغالباً ما يصاحب علو الصوت هذا سرعة إلقاء الألفاظ وإيراد النصوص دون وقفة أمامها أو استنتاج منها ويخرج السامع في النهاية كأنه لم يسمع شيئاً سوي عبارات ألقاها الخطيب بسرعة دون شرح لمقاصدها أو استلهام العبر منها .

قد يحدث هذا في مدرج الجامعة ، فالمدرس يلقي الدرس على طلابه بسرعة وهم جلوس أمامه بدفاترهم يقيدون بسرعة لمحات خاطفة مما يلقيه أستاذهم على مسامعهم . وفي النهاية معهم كتاب مؤلف يراجعون فيه ما فاتهم أثناء المحاضرة ، قد يحدث هذا ولا ضرر منه لارتباط المدرس بمنهج دراسي محدد ، الأمر هنا يختلف تماماً بين الخطيب وسامعيه ، وبين المدرس وطلابه فالطلاب يفهمون بالقول وباللمحة العابرة ، أما المستمعون للخطيب فقد جاءوا إليه لكي ينتفعوا بعلمه . مستوياتهم الفكرية مختلفة ، بعضهم يفهم وبعضهم يحتاج إلي تأكيد المعني وشرح النص واستخراج ما يستفاد منه حتى يترسخ مفهوم هذا النص في النفوس . ونحن لا نعيب علو الصوت وقوة النبرات ولكن نعيب على الخطيب المبالغة في ذلك .

شاهدت مرة خطيباً من هذا النوع لم يستطع إكمال خطبته نظراً للجهد المضني الذي بذله في علو الصوت وحدة نبراته فعاد إلي خفض صوته مرغماً وحاول بسرعة إنهاء خطبته ، وقلت في نفسي لو أنه التزم بالتأني والتوسط في علو الصوت لاستطاع أن يكمل خطبته دون إعياء أو إجهاد .

---

١ - سنتعرض لموضوع (القصة) بإسهاب عند حديثنا عن عناصر الخطبة ونصوصها .

إن المستمع لا يهمه علة الصوت بقدر ما يهمه في المقام الأول أن يفهم من الخطيب ما يلقيه على مسامعه .

أما عن أدب الخطيب مع السامعين فجماعه أن يتخلق بأخلاق القرآن في تواضعه وصبره وأن يحفظ لسانه من الأذى وأن لا يطيل في خطبته وأن يتحرى اختيار العبارات التي يفهمها العامة قبل الخاصة متجنباً الألفاظ الغريبة والقضايا العلمية البحتة والمجادلات الفلسفية التي لا تؤدي إلى نتيجة . وسنحاول أبان حديثنا عن "تربية الخطيب" بسط هذه القضايا وما ذكرناه على سبيل الإجمال ، كان هدفنا لذكره هو تبصير القارئ بالمقومات الأساسية للخطابة ، باعتبارها علم له قواعد محدودة وفن له إبداعات تأتي نتيجة الممارسة والتجربة تلو الأخرى ، وسلوك يربط بين العلم والفن ، وبدون هذه العناصر الثلاثة لا تؤتي الخطابة – في رأينا – ثمارها المرجوة وفائدتها المرتقبة .

هذا وبالله التوفيق

أ . د / حسن عبد الحميد حسن